مجلة المعالم

العدد : ١٨٣ الموافق في جمادى الأولى ١٤١٧ هجري ١٠ / ١٩٩٦ ميلادي

عنوان المقال : تأملات في العلاقة بين الأخلاق والأوبئة	بقلم : إبراهيم عبد الله

يعلمنا القرآن الكريم والسنة النبوية درساً أساسياً من دروس الأخلاق ؛ وهو أن الانحراف مهيع إلى سخط الله وغضبه ، وإلى ظهور أوبئة وأمراض لم تعرفها أمم سبقت ، ولذا حث القرآن الكريم على الالتزام بالاستقامة والبعد عن ظاهر الآثام وباطنها ، ليتفيأ الإنسان في ظلال الإيمان ، السعادة الكبرى التي يحسد الملوك عليها بسطاء الناس من المتقين. لكن الإنسان الميال بطبعه إلى الأسهل في كل شيء يجد نفسه في الغالب - وقد أخطأته كلمة التقوى - قد أصبح هواه تبعاً لما جاءت به شياطين العصر القديم والحديث وزينته في النفوس ، حتى إذا أهلك الهوى صاحبه وسقط فريسة فيروس قاتل ، أو وباء مميت بما كسبت يداه ، تبرأ منه الجميع ، سوى مشاعر هنا وهناك ملؤها الشماتة حيناً والشفقة حيناً آخر.

❋ ❋ ❋

١- إن ما نراه في هذه السنوات الأخيرة من القرن العشرين من أوبئة تجتاح العصر ، لا يمكن أن يمر في حس المسلم دون دلالات ومعانٍ. إن السيميائيات المعاصرة تعلم القارئ الغربي الحديث أن كل شيء في الكون يحمل في ذاته دلالاته ، و « أن هناك أشياء تتكلم من دون لغة... فجميع الكائنات تتكلم حتى وإن ظلت صامته... فاللغة ليست هي الصيغة الوحيدة للكلام ، فثمة على سطح الأرض وفي أعالي السماء عناصر لا تفتأ أن تتكلم دون أن تتلفظ الحروف والكلمات »[١]. وقد علمنا القرآن الكريم قبل ذلك أن الكون كتاب ينطق بقدرة الله وحكمته ، وأن في كل شيء له آية ، وأن كل حادث يحمل في أعماقه رموزاً ودلالات يجب إعمال النظر فيها وتأمل أسرارها. إن الله تعالى خلّد وحيه وأعلن فيه أن الآيات في الأنفس والآفاق ستظل تتكرر إلى أن يقتنع البشر بأن هذا الوحي حق لا مرية فيه[٢] ، وها نحن نرى بعضاً من آيات الله ندعو إلى تأملها ، عله يرشح من هذا التأمل بعض من معاني الإيمان التي نحن في حاجة إليها في هذا الوقت الرهيب من تاريخ البشرية الذي قدر لنا أن نعيش فيه.

إن جنود الله تعالى غير متناهية في هذا الكون الرحيب. ومن هنا ينبجس السؤال الذي يقودنا إلى هذه التأملات : ألا تكون هذه الفيروسات وهذه الأوبئة ، التي تجتاح العالم في هذا الوقت من تاريخ البشرية ، جنوداً إلهية تقوم بوظيفة أو وظائف محددة في هذا الوجود ، في هذا الزمان الذي أضاع فيه الناس الخلق الكريم مع الذات أولاً ، ومع الآخر ثانياً إنساناً كان أم حيواناً أم نباتاً أم جماداً ؟

لقد أصبحت من بين المهلكات في هذا العصر جيوش مدمرة من الفيروسات تمر على القرية

الظالم أهلها ، فإذا هي تبيت على هلع ، وتصبح على فزع ، وتعيش الذلة والهوان. وتعتبر هذه الفيروسات كائنات غريبة ، تحمل قوتها في إعاقتها ، فهي لا تملك سوى مادة وراثية واحدة ، وبالتالي لا يمكنها أن تتوالد وحدها ، ومن هنا تأتي قوتها ، وهي قوة تمثل للبشرية أفظع الأخطار ، إذ لا توجد خلايا في الجسم لا يمكن للفيروس أن يحتلها. إن بعض العلماء يرون أن الهدف الذي يحرك الفيروس هو الخلود ، وهو يصل إلى هدفه هذا بمجرد ما يستقر في جسم الإنسان ، إنه بذلك يضمن بقاءه. إن هذه الفيروسات هي أصغر العوامل الحية المعدية التي تعيش في الطبيعة ، حيث تكون نائمة إما في النبات أو الحيوان ، لكن عندما يغيب العقل السليم والوجدان المتزن عن علاقة الإنسان بالطبيعة ، فإنه يوقظ هذه الكائنات لتعبث في الأرض ؛ تدمر نفوس الجناة والأبرياء معاً [٣] ، ليظل الإنسان بسلوكه العابث مصدر إثارة هذه الأوبئة الفتاكة. وما يفعله فيروس « السيدا » أظهر دليل على ما نزعمه اليوم.

إن العلماء يحصون اليوم أكثر من ستين نوعاً من الفيروسات الخطيرة ، منها عشرون عائلة ، وكثير من هذه الفيروسات أيقظها الإنسان بفعله في الطبيعة ، يقول الدكتور Stephan S. Morse : **إن الأوبئة لا تظهر فجأة ، وإنما تظهر دائماً بعد انقلاب بيئي.** ونحن عندما نتأمل هذا الأمر نجد الهند قد عرفت وباءً يسمى bacil بعد زلزال ١٩٩٤ الذي دمر منطقة Maharashtra ، وساهم في تكديس الأوساخ والقاذورات في الأحياء ، وسهل لقاء الناس مع الفئران التي كانت حاملة للوباء ، وفي الأرجنتين قام الفلاحون بزراعة الذرة يعوضون بها الحقول ، فتكاثر فأر صغير يسمى Junin أصاب آلاف المزارعين بحمى يصحبها إسهال ، وفي موريتانيا وبعد بناء أحد السدود سنة ١٩٨٧ ظهر وباء من الحمى نتيجة فيروس تنقله بعض الحشرات ، وبعد حرب الخليج التي حطمت بشراسة النظام الصحي في العراق ؛ أصبح آلاف الأطفال يموتون بالإسهال والتهاب السحايا ، ومع انهيار الاتحاد السوفييتي ظهر وباء الدفتيريا الذي ينتشر اليوم في روسيا وأكرانيا وأذربيجان ، وحمله بعض المسافرين إلى فنلندا والنرويج وألمانيا. وقد ساهمت المواصلات في سرعة انتقال الفيروسات ، حيث أن الكوليرا لم تخرج من جنوب شرق أسيا إلا بعد الإبحار بالبخار ، وفي سنة ١٩٧٠ عرفت إفريقيا السوداء المرض نفسه عندما نقل الطلبة الغينيون المرض بالطائرة.

إن الطبيعة تحمل آلافاً من الفيروسات القابلة للانتقال لتتكيف مع وسط متغير ، ولا شك أن الفيروس الذي شغل الناس في الشهور الأخيرة بعد فيروس السيدا - وإن كان الإعلام الغربي أعطاه أكثر مما يستحق من عناية - هو هذا الفيروس الذي يسمى " Ebola " - آخذاً اسم أحد روافد نهر كونكو -

والذي يعتبر واحداً من الفيروسات الأكثر قتلاً والذي تمس النوع الإنساني ، وإيبولا يقتل في معاناة كبيرة تمس الرأس والأعصاب ، مثيراً إسهالاً دموياً متدفقاً يترك المريض وليس به قطرة دم ، وهذا الفيروس « اللغز » عند العلماء ذو قدرة عالية على العدوى ، حيث ينتقل بلقاء جسمي عادي مع المريض. وليس له دواء يوقفه ، وقد ظهر هذا الفيروس سنة ١٩٧٦ في الشمال الغربي لزائير وفي الجنوب الغربي للسودان أصاب ٥٠٠ شخص مات منهم ٤٠٠ شخص.

كما أن هناك خطراً آخر يداهم الإنسان في هذا القرن ، وهو خطر من صنع يديه وهو الخطر النووي ، فضلاً عن الخطر البيئي. فالخطر البيئي ناتج عن هذه الطاقة المستخرجة من الفحم والنفط والغاز والتي تطلق غازاً ملوثاً ، وخاصة الغاز الكربوني ، المسؤول الأول عن ارتفاع تأثير الاختناق I'effet serre وعن تغيير بيئي شامل ، مما سيجعل البشرية تعاني منه بشكل خطير. لكن الطاقة النووية لا تطلق غازاً ملوثاً. إن القوة النووية هي طاقة المستقبل ، ومنبع كل تقدم جديد ، لكن الإنسان المعاصر يؤدي ضريبة ذلك من سعادته وعمره ؛ فانفجار تشرنوبل في ١٩٨٦/٤/٢٦ أبرز بشكل فظيع ما يمكن أن يفعله الخطر النووي بالإنسان ، معيداً إلى الأذهان كارثة القنبلة النووية الملقاة قديماً على مدينتين يابانيتين بائستين ، لا يزال أبناؤهما يعانيان من ذلك في أنفسهم وذرياتهم. إن كارثة تشيرنوبيل لن يستطيع أحد بعد أن يتنبأ بنتائجها السلبية ، لأن آثارها لم تنته بعد ، إذ أن ضحايا السرطان سينمو في ظل العشرينات القادمة. وهؤلاء الذين أصابهم الإشعاع يعيشون في معاناة بين السرطان واليأس ، وفضلاً عن العدوى التي لحقت الأراضي والناس ، فإن هذه الكارثة تعتبر كحدث استثنائي في العصر الحديث.

إن الفيروسات والأوبئة لا تنتظر سوى الفرصة للظهور والأسباب لذلك كثيرة ، لكن عندما يحلو للبعض أن يحصيها فإنه يجدها في عوامل موضوعية خالصة ؛ يجدها في الهجرات الإنسانية الكبرى ، وفي المواصلات السريعة ، وفي الطفرات البيئية التي تعتبر من الأسباب الكبرى لذلك. وإن كنا نستطيع أن نلمس في العامل الأخير ما يزكي نزوعنا إلى اعتبار العامل الأخلاقي من العوامل المعتبرة التي يعتبر تجاهلها نقصاً في التشخيص والتحليل.

٢- إن الواقع المعاصر - من خلال بقايا فكره الوضعي - يريد أن يقنعنا بأن ما يقع في هذا العالم اليوم من انحراف في مسار هذا الكون ، سواء في السنين العجاف التي تضرب كثيراً من مناطق هذا العالم ، أو في الفيضانات التي تقض مضاجع ساكنيه ، أو في هذه الحروب التي تفتك بالناس هنا وهناك تحت سمع « العالم الحر » وبصره ، وغير ذلك من الخلل الذي أصبح يعرفه العالم المعاصر ، إنما هو

أمر عادي يتكرر في التاريخ ، ويخضع لمنطق السلم والحرب ، الصحة والمرض ، ومنطق القوانين الجوية التي يمكن أن نحسبها فلكياً ورياضياً ، ومنطق التوازن البيئي كما هو الأمر في شريعة الغرب ، وهذا المنطق لا علاقة له بمنطق الأخلاق ألبتة ، إن كان هؤلاء يعتبرون أن للأخلاق منطقاً ما.

إن العالم المعاصر لا يريد أن يسمع شيئاً عن الأخلاق وعن الفضائل ، وكما يقول الأمريكي James Wilson : **فالفضيلة كانت لها دائماً سمعة سيئة في الغرب** ، ولذا نجده في كتابه الجديد " Le sens moral " ينتقض المثقفين لأنهم حبسوا أنفسهم في سجن دارون وفرويد وماركس ، هؤلاء الذين أضفوا طابع النسبية على الفضائل باسم العلم. فلم يظهر خطاب للأخلاق في الغرب ، إلا ووجهت له سهام النقد ؛ فالغرب لا يريد للأخلاق أن تحشر نفسها في سياسة « المجتمع المدني » ، فلا علاقة للأخلاق بقانون أقره المجتمع المدني عن طريق مؤسساته ، لذلك قام هذا المجتمع في وجه البابا محتجاً على تدخل الله في المجتمع المدني !. عندما أطلق البابا صيحته من أجل تحريم الإجهاض. ويحرص المجتمع الغربي على « معالجة » وباء السيدا وما يترتب عنه بحذر كبير ، حتى لا يمس « الحرية الشخصية » للأفراد ! فيشجع استعمال ما يسميه بالعازل الطبي ويسكت عما نسميه العازل الأخلاقي. إن إدخال الخطاب الأخلاقي في معالجة هذه الظاهرة هو إدخال لخطاب ينتهك الحرية كمبدأ مقدس من مبادئ الدولة المعاصرة ، فالحرية الفردية مقدسة ولو عبث بها صاحبها ، وخرج بها عن طورها وعندما يطرح السؤال : إذا كان القانون الذي يصوت عليه البرلمان له صلاحية تشريعية فهل السلوك الذي يبيحه هو سلوك أخلاقي ! فإن المجتمع المدني لا يريد أن ينخرط في هذا الجدال لأن هذه المسألة بالنسبة إليه تتعلق بالأفراد فقط ، لأنه لا يمكن أن نخضع « الأخلاق المدنية » لأخلاق عليا ، ليعيش الغرب نسبية أخلاقية تخضع للحملة الانتخابية كما يقول البابا نفسه.

إن الغرب قد ارتضى لنفسه هذا المسلك في النظر والفعل ، وأخطأه المنظار الذي يرى في هذه الأوبئة إنذاراً إلهياً لقوم غالوا في كل شيء حتى أوشكوا أن يغيروا خلق الله ، وهذه البحوث البيولوجية التي يشجعها والتي نفذت إلى الخلية البشرية تعبث فيها عبثاً علمياً ، توشك أن تنذر بخطر كبير يمس النوع الإنساني في كرامته الأصلية التي برأه الله عليها ، إن هذه التشوهات التي تلحق بالبشرية اليوم نتيجة العبث الأخلاقي والتقني قمينة بأن تلفت النظر إلى أن العلة الكامنة وراء هذا التشوه هو التفلت مما هو متعال ومفارق للبشر من توجيهات إله رحيم بالبشر يعلم ضعفهم ويريد أن يخفف عنهم ، وهو ما يدعوهم إلى أن يفكروا في تغيير منهج حياتهم كما يقضي بذلك العقل السليم ، فيبحثوا - بما شاع عنهم

من موضوعية في النظر - عن « سبيل » يحفظ للجسم وظيفته ، ويلبي للروح أشواقها.

إن كثيراً من أبناء الغرب قد ارتضوا لأنفسهم أن يصموا آذانهم عن خطاب التدين ، بعد التشوه الكبير الذي عرفه تاريخ علاقته بالدين عموماً والأخلاق خصوصاً ، وها هم اليوم يجنون ثمار هذا الانحراف ، فقد بدأ الكثيرون يعلنون أن وباء السيدا قد حصد كثيراً من رموز « الثورة الجنسية » الذين رفعوا شعار التحرر الجنسي في السبعينات وناضلوا من أجله. لقد أيقظ « الرواد » بسلوكهم العشوائي هذا جنوداً نائمة نهشتهم وتنهش أجسام أبنائهم ، وعندما نسمع ونقرأ أن من المناطق الأولى التي يحاصرها فيروس السيدا هي منطقة الدماغ ، فلا بد أن يرى المسلم في ذلك آية على أن الفيروس يحاصر المنطقة التي فرط صاحبها فيها ولو أحسن العناية بها لما وقع فيما وقع فيه. وفي المرض الأخير الذي اصطلح عليه باسم « جنون البقر » ، والذي ظهر في نهاية سنة ١٩٨٥ أكثر من آية لمن أراد أن يعتبر ؛ هذا المرض الغريب الذي يزلزل البقر فتصبح عدوانية ، عاجزة عن تنسيق حركاتها ، حتى إذا فقدت التوازن ، ماتت البقرة في فترة تتراوح بين أسبوعين وستة أشهر. وعند تشريح البقرة يلاحظ من بين ما يلاحظ أن خلاياها العصبية محطمة ، وأن مخها ملأته الثقوب حتى أصبح شبيهاً بالإسفنجة ، فمن أين أتى هذا المرض ؟ إنه فعل الإنسان في بيئة الحيوان ، إن التدخل البشري المتهور في نظام الطبيعة عن طريق اختيار الرعي الصناعي على الرعي الطبيعي ، هو السبب الرئيس في هذا الوباء. فهذه الخراف المريضة بـِ « الارتعاش » والتي يمتنع الإنسان عن تناولها يحولها إلى دقيق يغذي به البقر ، لتصاب هذه الأبقار بدورها بهذا المرض التي يشاع أن أكل لحومها من البشر قد يصابون بنفس هذا المرض القاتل. كما أن أعراض هذه الأمراض الكثيرة التي « أبدعتها » الأنامل المتهورة للإنسان الحديث - يكاد يخفي أكثر من دلالة حول هذا التوازن الذي فقده هذا الإنسان في علاقته بنفسه والكون من حوله ، حتى كادت حالته تصاب بأكثر من خلل ، إلى درجة أن التساؤل حول من يحمي البقر من جنون البشر؟ كما طرحته- بشكل كاريكتوري - إحدى المجلات الفرنسية الذائعة الصيت أصبح تساؤلاً معقولاً ، أليس من الجنون الواضح إعطاء دقيق حيواني لحيوانات عاشبة ؟![٤]

إن الإنسان بسلوكه العابث ما يفتأ يغني معجم الفيروسات والأوبئة بدون انقطاع ، فاللائحة لن تغلق أبداً ، ورغم تقدم التلقيح فإن الأمراض المعدية لم تجرد من سلاحها ، إن الفيروس يصاحب الإنسان منذ الزمن الأول لوجوده ، لكن ما دام أواخر القرن العشرين ، قد أصبح يعرف انقلابات كثيرة سواء تعلق الأمر بالسلوك اليومي للبشر الذي يفتقد الرؤية الأخلاقية ، أو تعلق الأمر بما تفعله التقنية اليوم

بالإنسان وما قد تفعله في القرن المقبل فإن أحد العلماء في مؤتمر داكار الذي انعقد حول الأمراض المعدية قد تنبأ بأن الألف الثالث سيرى نمو الخطر الفيروسي ، هذا الخطر الذي يوشك أن يصبح خطراً عالمياً ليمس الجاني والبريء معاً.

٣- إن ما يقع اليوم في هذا المجال آية للأنفس تشهد على عظمة الاستقامة وأهمية التوازن في السلوك ، والوسطية في الفعل الإنساني. وهي كلها معان يلح عليها الإسلام. إن هذه الأوبئة التي تضرب هنا وهناك لا تعرف حدوداً. والمسلمون اليوم ليسوا في نجوة من هذه الأوبئة التي تضرب العالم ، الذي يراد له أن يكون قرية صغيرة يمس المسلمون فيها الأمراضَ والأوبئة التي يثيرها سلوك عشوائي هنا وهناك ، ويحرمون من العلم والتقنية التي يتفتق عنها الذهن الإنساني في هذا البلد أو ذاك. لكن كثيراً من المسلمين دأبوا على النظر إلى ما يطفح به الغرب من ظواهر اجتماعية وسياسية وفكرية مريضة على أنها علامة انهيار الغرب وتداعي أركانه. ويوشك هذا أن يصبح همّ كثير من الأقلام الإسلامية وكأن عالمنا العربي - الإسلامي في نجوة من ذلك ، وكأنهم لم يدركوا بعد أن هذه « القرية الصغيرة » توشك أن تهب عليها ريح سموم واحدة ، لتفتك بالعقول وتحطم النفسيات ، فيقتسم ساكنيها نفس الأمراض ، وتطفو على الجسم العالمي نفس الأورام.

إن الدلالات والآيات في هذا العالم قد كثرت ، والحقائق لم تعد تخفى على ذي لب. إن الغرب يحرص جهده اليوم على منع أسباب التقدم عن غيره لينفرد وحده بأسباب التفوق ، حرصه على أن يذوق الجميع من وبال ثمار الحداثة لديه ، هذه الحداثة التي انطلقت من تقديس فكرة التقدم التقني خاصة[٥] ؛ إن العالم يعرف اليوم تلوثاً خطيراً ليس على المستوى المادي فقط ، وإنما على المستوى الروحي والنفسي أيضاً ، وحادثة التحرش الجنسي الأخيرة ببلجيكا وما خلفته وراءها من نفوس مدمرة ، وإثارة ظاهرة انتشار أسواق دعارة الأطفال عالمياً دليل قريب على ذلك ، إن الأوبئة التي تنهك الإنسان المعاصر ليست فقط أوبئة جرثومية قابلة للفحص المخبري ، وإنما هي أيضاً أوبئة عميقة في النفس البشرية تند في كثير من الأحيان عن المعالجة العيادية ، بل يمكن دون تمحل القول :

إن التلوث الروحي مسؤول بدرجة كبيرة عن هذا التلوث المادي الذي يدمغ البشرية اليوم ، فيسوقها إلى جحيم من العذاب النفسي والمادي تنهد له الجبال ، ومن هنا فالعالم في حاجة إلى خطاب جديد يدله على الحق باللغة التي يفهمها ، وهو أمر لو انتبهنا إليه لأدركنا جسامة الأمانة الملقاة على عاتقنا ، في واقعنا وعالمنا وعصرنا ، وصرفنا عن الخطب الرنانة ، إلى التأهل لفعل جذوره الثقة بالله

والأمل بالمستقبل ، وجذعه العلم والإخلاص والوعي ، وفروعه أساليب مدروسة ومنهجيات محكمة لتشريح الواقع والفعل فيه.

الحواشي :

(١) التأويل الميتافيزقي والتأويل المضاد ، عبد السلام بن عبد العالي ، جريدة الحياة ١٩٩٦/٤/١٩.

(٢) يقول تعالى : { **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**...}.

(٣) يقول تعالى : { **واتقوا فتنة لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة**...}.

(٤) انظر حول هذا المرض مقال د. أ. أنس ، مجلة الرائد ١٨١.

(٥) أثارت جريدة لوموند في أعدادها : ٢٠ إلى ٢٥ غشت/١٩٩٦ سؤالاً حول : هل ماتت فكرة التقدم ؟ ساهم في الإجابة عنه بعض المفكرين والفلاسفة والصحافيين ونتمنى أن تسنح الفرصة للعودة إلى إثارة مفهوم التقدم وتأمله انطلاقاً من ذلك ، مساهمة في تقديم رؤية للموضوع ، خاصة وأنه يكمل ما أثرناه هنا في هذه التأملات.